بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 23 يناير 2018

المُختلِف؛
مقاربة إبستيمولوجية في التأصيل والمرجعية

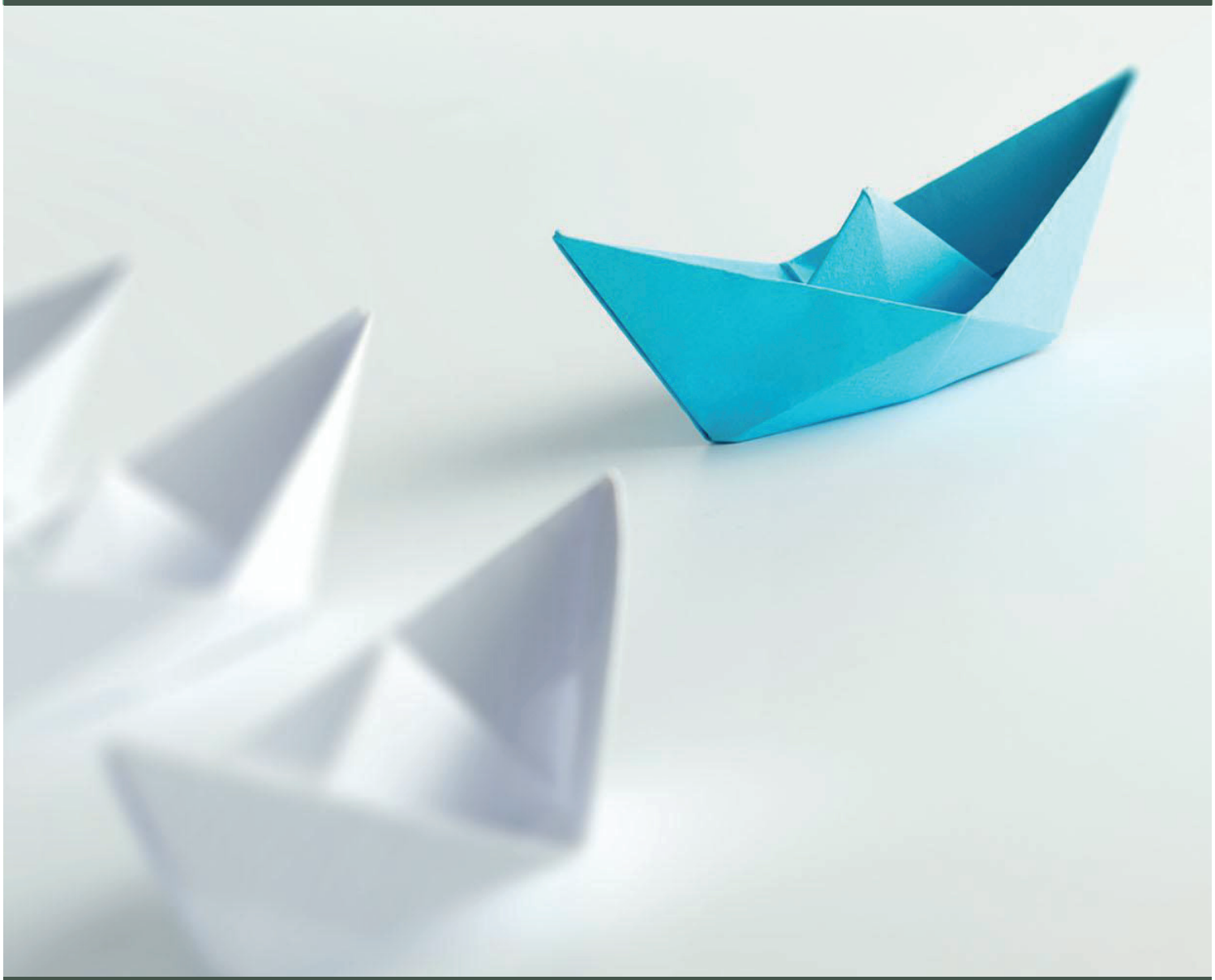

مكي سعد الله
باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

ملخص

الاختلاف وعي بـ «الآخر» وبوجوده وكينونته وإحساس وجداني بقبول المغايرة، وهو ثقافة وسلوك وقيمة تتمظهر في صور وتمثُّلات متعددة ومتنوعة تصنعها المرجعيات والمرويات الكبرى، ولكنها تنصهر وتتكيف وتتفاعل مع الوعي، فتتحول إلى مثاقفة وتواصل واتصال.

لا يسعى هذا البحث إلى رصد تجليات «المختلف» ورسم صوره ونماذجه وتنميطه بما يتماشى والأفكار المسبقة أو الوضعيات والمواقف الانفعالية الآنية، بقدر ما يهدف إلى البحث عن الجذور الإبستيمولوجية للمصطلح والحفر في دلالات المفهوم للوقوف على ماهيته وهويته، ليس بغرض تقديم معجم لغوي وفكري للمُختلف، وإنما بقصد محاربة التمركز الذاتي المؤسس للثقافة الإقصائية.

إن تجاوز براديغم الذاتية المُنتجة للفكر الأحادي تعبير وإرادة في تكريس ثقافة الاختلاف ودعوة صريحة للمثاقفة الندية واحترام للغيرية وجمالياتها الإنسانية.

المُختلِف

«Les religions sont comme des routes différentes convergeant vers un même point, Qu'importe que nous empruntions des voies différentes, pourvu que nous arrivions au même but»[1].

«الأديان كالدُروب المُختلِفة تتقاطع حول مركز مُحدد، فلا تهمُّ اختلاف المسارات المتبعة لأنّها في النهاية تُؤدي إلى نفس الهدف».

تمَّ توصيف مرحلة لقاء العَرَب بالغَرْب، بالصَّدمة الحضاريَّة تارةً، وبمرض الغرب تارةً أخرى، وبالعصاب الجماعيّ في مرحلةٍ نهائيةٍ كدليل على درجة التفاوت بين الحضارتين والمدنيَّتين والثقافتين. أمَّا النعوت والأوصاف المتداولة في الخطابات والمقاربات العربية للدلالة على قوة الصَّدمة والمفارقة ونوع العلاقة التي يُمكن أنْ تكون، فتنوعت بين الدعوات المحذِّرة من أخطارٍ محدقةٍ بالهوية والخصوصيَّة الثقافيَّة، فجاءَ الخطاب معبرًا عن الاغتراب والاستلاب والغزو الثقافي وثقافة التماهي مع الغرب المسيحي الكافر الذي يسعى إلى صَهرِ جميع الثقافات في مركزيَّته الأوروبيَّة ذات المرجعيَّة اليونانيَّة الرومانيَّة واليهوديَّة المسيحيَّة، وكرَّست هذه المقاربة ثقافةً تجعل من المؤامرة على الهوية رهانًا، يتطلب التجنيد والحذر والرفض من كل ما هو غربيٌ.

وبصرفِ النَّظر عن التيَّار الثاني الذي تبنَّى رؤيةً استئصالية ترفض كلَّ موروثٍ ثقافيٍ ودينيٍّ، وتنادي بالتماهي الكلي مع المنجز الحضاري الغربي حتى في معتقداته وخصوصياته الثقافيَّة التي لا يُمكن أنْ تنبت إلا في تُربتها وبيئتها الخاصة، فإنَّ تيارًا وسطيًا دعا إلى النَّظر نحو المُختلف الغربي والاختلاف الحضاري من زاوية صراع الحضارات، والهوية والاختلاف وجدليَّة الأنا والآخر.

وبتجاوز التسميات والمصطلحات، فإنَّ جوهر المعادلة هو «فكرة الاختلاف» وكيف تتجلى هذه الظاهرة في الثقافة والسياسة والاجتماع والأنثربولوجيا.

وإذا كان الاختلاف البيولوجي فطرة في الكائنات يمكن وعيُه وإدراكه والإقرار به، فهو طبيعيٌ، فإنَّ الاختلاف الثقافي والحضاري أصبح معيارًا لتحديد العلاقات الدولية، والتحكم في نوعيتها من عداوةٍ وصداقةٍ وتسامحٍ وتعصبٍ وما إليها «أصبحت الهوية الثقافيَّة هي العامل الرئيسي في تحديد صداقات دولةٍ ما وعداوتها، وبينما كانت دولة ما تستطيع أنْ تتجنب الانحياز أثناء الحرب الباردة، إلا أنَّها لا يُمكن أنْ تفقد

1- Gandhi (1869-1948)

هويتها. سؤال: إلى أي جانب أنت؟ حلَّ مَحلَّه سؤال: من أنت؟ وعلى كل دولة أن تجدَّ له إجابةً، هذه الإجابة هي هويتها التي تحدِّد مكان الدولة في السياسة العالميَّة كما تحدِّد أصدقاءها وأعداءها»[2].

ولَعبت ثورة الاتصالات وفتوحات العولمة أدوارًا أساسيَّةً في الكشف عن الخصوصيات الثقافيَّة والهويات الفرديَّة والجماعيَّة، ذلك أنَّ «الأنا» المستهلكة لثقافة «الآخر» تشعر بأنَّ كيانها الوجودي مهدَّد بثقافةٍ مهيمنةٍ وجارفةٍ، تمتاز بالقوةِ وسُرعة التدَّفق والانتشار ممَّا يؤدي إلى البحث عن ملاذٍ يقلِّص نسبة الاضطراب والاغتراب ودرجته، ويحاول أنْ يُعيد للأنا توازنها، وقد تكون الهويات البديل الموضوعي للإشكالية بما تحقِّقه من انتماءٍ واستقرارٍ.

والاختلاف سواء كموضوعٍ أو فلسفةٍ أو اتجاهٍ قد تجاوزَ حدودَ الدلالةِ اللغويةِ البسيطةِ التي تُفيد، المخالفة في النهج، وأنْ يسلك كلُّ شخصٍ طريقًا وسبيلاً يَختلف عن صاحبه، إلى أنْ أصبح تيارًا فكريًا مستقلًا في الفكر الحَداثي المعاصر، واعتبره العديد من الفلاسفة مشروعًا تنويريًا يسعى لتفكيك المركزيَّة الغربيَّة، ومنهم: جاك دريدا (Jacques Derrida) (1930-2004) وجيل دولوز (Gilles Deleuze) (1925-1995) وإيمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas) (1906-1995) ومارتن هايديغر (Martin Heidegger) (1889-1976).

حاول هؤلاء الفلاسفة كلٌّ حسب مقاربته التأصيل لنظرية الاختلاف التي تمنحُ الأنا فضاءً أوسعَ من فضاء الهويات والمركزيات، ويُتيح لها حريةَ الفكرِ والتواصلِ مع كلِّ ما هو إنسانيٌ وكونيٌ ويخلِّصها أيضًا من قيود المرجعيات التي تكَّبل الإبداع والاتصال.

وفكرة الاختلاف من القضايا التي شغلت الفلاسفة والمفكرين عبر العصور، ابتداءً من أوَّل حضارةٍ مدونةٍ وهي الحضارة اليونانيَّة، وصولًا إلى مفكري وفلاسفة الإسلام وفقهائه، ولكن الاختلاف في الفكر الإسلامي اقتصر على دراسة الاختلاف ضمن القضايا الفقهيَّة والمسائل المتعلقة بشؤون الدين بالدرجة الأولى، وفي علاقة الإسلام كدينٍ بالشعوب والثقافات الأخرى بدرجةٍ ثانيةٍ.

تميَّزت الهوية في ظلِّ الحضارة الإسلاميَّة بالاستقرار نظرًا لتجانس المنظومات الفكريَّة والعقائديَّة والاقتصادية، ممَّا أدَّى إلى تبسيط سؤال الذات والآخر، الشَبيه والمُختلف. فلمْ يشكِّل الاختلاف قلقًا للهوية لتتساءل حوْل تموضعها ومصيرها ومقاربتها لهذا الآخر، كما أنَّ هذا الآخر/المُختلف لمْ يتحوَّلْ إلى غرابةٍ (Etrangeté) بمفهوم جوليا كريستيفا (Julia Kristiva)، لأنَّه تكيَّف مع نُظمٍ تشريعيَّةٍ تضمن وجوده ولا تهدِّد كيانه وتدافع عن خصوصيته، فمبدأ احترام البُعد الهوياتي استمدَّ شرعيَّته من الخطاب القرآني الذي

2- صامويل هنتنجتون، صراع الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صالح قنصوه، سطور، ط2، 1999، ص 203

ينص على، قال الله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)[3]، وقوله أيضًا (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ)[4]، وجاء في الأثر موقف إنسانيٌّ إسلاميٌّ مُجسَّد في وصية الإمام علي - كرم الله وجهه - إلى وليِّه بمصر مالك الأشتر «الناس صنفان: إما أخٌ لك في الدين, أو نظيرٌ لك في الخلق».

وعلى الرُّغم من قراءة مفكري الحضارة الإسلاميَّة لآيات الاختلاف الواردة في القرآن الكريم، وتعمقهم في تتَّبع دلالات اشتقاقات الفعل «خَلَفَ» وتدوين بعض الفقهاء لمراجع تتعلَّق بحقوق أهل الذِّمَّة، فإنَّ فكرة «الاختلاف» لم تَرقَ إلى مستوى يشغل الاهتمام والعقل، فكان وجود الآخر/ المُختلف، كثقافةٍ ودينٍ وهويةٍ تواجدًا لا يُشكِّل خطرًا وتهديدًا للهوية الشخصيَّة، ممَّا دفع إلى التعامل معه كوضعٍ وقيمةٍ اعتياديةٍ طبيعيةٍ لا تدفع إلى بناء استراتيجيات لمواجهته.

فأطروحة نشأة فكرة الاختلاف تختلف وتتفاوت بين المنظورين والمنظومتين الغربيَّة والعربيَّة «عَمل الغرب منذ فلسفة الأنوار إلى الآن على الجمعِ بين مستويَيْن اثنيْن من مكوناته: إنتاج ذاته وعناصر هويته من جهةٍ، ونَقد هذه الذات وتحولات تلك الهوية من جهةٍ ثانيةٍ، تارةً يتمُّ هذا النَّقد باسم العقل وتارة أخرى يتَّخذ هذا النَّقد شكلَ سلبٍ جذري لمَّا هو كائنٌ، وتارةً ثالثةً باسم اللَّاعقل، وإعادة الاعتبار للمتخيلِ. وهكذا نحتَ تاريخ الأفكار الغربيَّة طُرقًا وأساليب متعددةً جعلت منه تاريخًا يجمع بين مقارباتٍ وحساسياتٍ متصارعةٍ ومتباينةٍ تصلُ أحيانًا إلى درجة التنابذ والإلغاء المتبادل»[5].

كانت فكرة الانتماء لمنظومة تشريعيَّة تضمن الحقوق وتحدِّد الواجبات، بوتقةٍ انصهرت فيها الاختلافات وتلاشت[6]، ولم تصبح إشكاليةً تستوجب استنفار المنظومات الفكريَّة والفلسفيَّة لبحثها بهدف تحديد مفهومها ومكوناتها وتبيان أصالتها لتحديد الدَّخيل من الأصيل، بما يتوافق ويتناسب مع المركزيَّة الغربيَّة.

ويُمكن اعتبار نشأة فلسفة الاختلاف كتجسيدٍ لصراع الهويات والمركزيات فكرةً أو أطروحةً وليدةَ فكر الحداثة في الحضارة الغربيَّة. أما في المنظومة الفكريَّة العربيَّة، فإنَّ الاشتغال بقضيَّةِ الأنا والآخر، تعدُّ من الإشكالات النهضويَّة التي ظهرت بعد الاتصال المباشر وغير المباشر بالغرب وحضارته وثقافته، حيث بدأت تطفو قضيَّة «من نحن؟» ومسألة «لماذا تقدَّم الغرب وتأخر المسلمون؟».

3- سورة هود، الآية 118

4- سورة الروم، الآية 22

5- محمد نورالدين أفاية، المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، بيروت، 1414ه/1993م، ط1، ص 13

6- يعتبر كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني، موسوعة في الاختلاف والتنوع، حيث عرض صاحبه تاريخا مفصلا لأهم الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب، بالإضافة إلى أهل الأهواء والنحل كالفلاسفة والدهرية وعبدة الكواكب وغيرهم. كما تحدث عن فكر الاختلاف بين هذه الفرق التي كانت تنزع دائما إلى الجدل والمناظرة، ونادرا ما كانوا يتصادمون صداما عنيفا (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، المتوفى سنة 548ه، الملل والنحل، صححه وعلق عليه، أحمد فهمي أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1413ه/1992م.)

وقد لعبت التكنولوجيا الجديدة خاصةً ما اتصلَّ منها بالإعلام والاتصال دورا مركزيا تأصيليا في رواج مُصطلح الاختلاف، فقد غيَّرت المنظومة المعرفيَّة جذريًا وحوَّلتها من سلطةِ الخاصِّ والمركزي الضيِّق الذي يَدور في دوائرَ وفضاءاتٍ محدودةٍ لا تتجاوز النُّخب وأتباعهم إلى فضاءات أرحبَ وأوسعَ بفضل قوَّة الوسائط التي يَّسرت الوصول إلى المعرفة، وحملت هذه المعارف اختلافات الآخر وخصوصياته وسماته الفرديَّة المميَّزة، يُضاف إلى هذا السبب ارتباطُ مفهوم الاختلاف بحقول الدراسات الأنثربولوجية، والأدب المقارن ونظريات التلقي، التي تتَّخذ من الاختلاف الثقافي أرضيَّة للبحث العلمي الأكاديمي «الاختلاف مُفردةٌ شائعةٌ اكتسبت بُعدًا مفهوميًا واصطلاحيًا نتيجة جهود بعض المفكرين الذين أسهموا في تعبئتها بحمولةٍ دلاليةٍ معرفيةٍ جديرةٍ بالاهتمام، وان لم يفعلوا ذلك دائمًا من خلال المفهوم نفسه أو تحت مُسمى الاختلاف، فالمفهوم الذي اكتسب بعدًا اصطلاحيًا تداوليًا نتيجة تلك الجهود صار ذا صلةٍ بمفاهيم رديفةٍ تُثريه بطريقةٍ غير مباشرة، ومن تلك المفاهيم مفهوما التحيُّز والتأصيل»[7].

الاختلاف في اللغة: من الفقر المعجمي إلى ثراء الخطاب القرآني

أَفْردت معاجم اللُّغة العربيَّة، قسمًا مهمًا ومعتبرًا من حيث الكمَّ والكيْف لفعل «خَلَفَ» ومُشتقاته، التي تواترت تواترًا كبيرًا في القرآن الكريم ممَّا دفع باللُّغويِّين إلى الإسهاب في البحث عن دلالاته المختلفة، التي تُستقى وتُستنتج من السياق القرآني البديع.[8]

جاء فعل «اختلف» ومصدره «الاختلاف» في بنائه للمعلوم على صيغة (افتعل) مفردًا واختلفوا (افتعلوا) في حالة الجمع للدلالة على الاختلاف والتفرُّق وعدم الاختلاف» اختلف الشيئان: لم يتفقا ولم يتساويا»[9]، ويحمِّل الفعل الدلالة ذاتها في حالة بنائه للمجهول (اختلف)، فدَّل على الأمر الذي لم يتَّفق بشأنه أو حوله «والاختلاف والمُخالفة أنْ يأخذ كلُّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخِلاف أعمُّ من الضِّدِّ، لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان وليس كلُّ مختلفيْن ضدَّين، ولمَّا كان الاختلاف بين الناس في القول يقتضي التنازع، استعير ذلك بالمنازعة والمجادلة»[10].

7- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2008، ص 13

8- لقد ورد في القرآن الكريم ذكر الاختلاف في مواضع عدة، حتى أن بعض السور غلب فيها ذكره مثل سور الأنعام والروم والجاثية، ويكثر حضوره في الآيات التي تبتدئ بقوله تعالى: «ومن آياته» وقد أحصى المعجم الالكتروني لألفاظ القرآن، عدد مشتقات الفعل "اختلف" بصيغه المختلفة فكانت: اختلف (4 مرات)، (اختلفتم مرتين)، (اختلفوا11 مرة)، (تختلفون6 مرات)، (يختلفون10مرات)، (فاختلف مرتين)، (اختلاف 6 مرات)، (اختلاف مرة واحدة)، (مختلف 6 مرات)، (مختلفا 4 مرات)، (مختلفون مرة واحدة)، (مختلفين مرة واحدة). ينظر:

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية:

http://qurancomplex.gov.sa.

9- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط 4، 2004م، ص 251

10- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502ه) المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط، محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 156

حمل الاختلاف دلالة الاتجاه والذهاب في المُعاكسة، والعكسيَّة مفهومٌ أعمَّ وأعمَّق من الضدِّيَّة، ذلك أنَّ الضدِّيَّة من وظائفها تمييز الأشياء وتوضيحها، أمَّا الاختلاف فمن وظائفه الدلالة على التنوُّع والتعدُّد والتنازع. وقد حثَّ العلماء والمفكرون على الاختلاف الدالِّ على التنوُّع والتعدُّد واعتبروه أمرًا محمودًا، ونهوا عن التنازع باعتباره فشل وتشتيت للجماعة وإنهاك للقوى، وتبديد للقدرات والمجهودات «الافتراق أشدُّ أنواع الاختلاف، بل هو ثمار الاختلاف، إذْ قد يصلُّ الاختلاف إلى حدِّ الافتراق وقد لا يصلُّ، فالافتراق اختلافٌ وزيادةٌ، وبناءً عليه فكلُّ افتراقٍ اختلافٌ وليس كلُّ اختلافٍ افتراقٌ»[11].

إنَّ التَّضادَّ والتنازع والمجادلة كلُّها مراحلٌ من مراحل التواصل والاتصال، وهي من خصائص الاختلاف التي تدفع بأطراف الاختلاف إلى اتخاذ واتباع سبُلٍ أخرى للاتفاق وفقًا لضوابط الاختلاف المَحمود الذي يثري الجدل وينتج الحلول الناجعة في ظلِّ التنوُّع والتعدُّد «الخلاف مُنازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حقٍ أو إبطال باطلٍ»[12].

وهكذا، فإنَّ دلالات الفعل «اختلف» وما اشتق منه من صيغٍ صرفيةٍ تُحيل في عمومها على التنوُّع والتعدُّد مع ما يصاحب جدل التعدُّديَّة من نتائج تتراوح بين التَّضاد والافتراق والتنازع والمجادلة وغيرها، لأنَّ أساس الاختلاف اللامساواة، فلا يُمكن منطقيًا أن يختلف المتساويان، قال ابن منظور: «تَخالفَ الأمران واختلفا: لم يتفقا. وكلُّ ما لم يتساو، فقد تخالف، وقوله عزَّ وجلّ: والنخل والزرع مختلفًا أكله أي في حال اختلاف»[13].

والمساواة المُطلقة لا تتحقَّق إلا في شؤون المادة من وزنٍ وكيلٍ وحجمٍ وتتعذَّر في المشاعر والأحاسيس وشؤون الثقافة والاجتماع، ولذلك كان من معاني المساواة العدل والمماثلة، وفي الاختلاف يتمُّ الاتجاه نحو تقليص درجات الاختلاف سعيًا لتحقيق مساواةٍ جزئيَّةٍ ومماثلةٍ نسبيَّةٍ.

وأثرى القرآن الكريم المُعجم اللُّغوي العربي بدلالات جديدة، فحمَّل الفعل «اختلف» معانٍ جديدةٍ لم تكن معروفة من قبل، أخرجته من المعنى البسيط المتمثِّل في عدم الاتفاق، ومن هذه المعاني، التعاقب، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)[14] والتنوع في قوله أيضا: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ)[15].

11- صالح بن غانم السدلان، الائتلاف والاختلاف، أسسه وضوابطه، دار بلنسية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1417هـ، ص ص 12، 13

12- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (816هـ-1413م) معجم التعريفات، تحقيق ودراسة، محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص 89

13- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مرجع سابق، باب (خلف) الجزء التاسع، ص 91

14- سورة المؤمنون، الآية 80

15- سورة الروم، الآية 22. وحمل فعل الاختلاف أيضا معاني، التناقض والتضارب والاضطراب وغيرها في آيات كثيرة، ينظر:

أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لآيات القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ط1، 1423 هـ/2002م، ص ص 170-171

وتنافس علماء اللُّغة وفقهاء الشريعة الإسلامية في استجلاء مفهوم فعل «خَلَفَ» وما اشتق منه لفهم آيات القرآن الكريم ورفع كلَّ التباسٍ من شأنه تشويه المعنى، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية «ولفظ ((الاختلاف)) في القرآن الكريم يراد به التضَّادُّ والتعارض؛ لا يراد به مُجرد عدم التماثل - كما هو اصطلاح كثير من النظار- ومنه»[16]. والتضَّادُّ في اللُّغة والبلاغة، أنْ يكون فيه أحد الأمران مخالفًا ومعاكسًا للآخر، والطباق من وظائفه البلاغيَّة تمييِّز الأشياء بغرض توضيحها ((وبالتضَّاد تتمايَّز الأشياء))، ويحمل التعارض معاني التقاطع والتضارب وعدم التطابق، كلَّ هذه المعاني والدلالات تحثُّ الفكر على استخدام العقل في التأويل والتفسير، لأنَّ معاني التقاطع والتَّضارب والاختلاف والتَّنازع هي نتائج البحث والاستقصاء، ولهذا حاول الكَفَويُّ أنْ يحدِّد مجالات الاختلاف ويَضبط حدوده «الاختلاف في الأصول ضلالٌ، وفي الآراء والحروب حرامٌ، والاختلاف في الفروع كالاختلاف في الحلال والحرام ونحوهما والاتفاق فيه خيرٌ قطعًا»[17].

لم تستندْ آراء الكفويُّ في تحديد مجالات الاختلاف وتمييز المَحمُود والمَذمُوم منه إلى دليلٍ فقهي أو نصٍّ شرعي، فهي اجتهاداتٌ خاصةٌ راعى فيها مصلحة الأمَّة والدولة الإسلامية وهي مرحلة التكوين، ولعلّ هذا ما يفسر أيضًا اجتهاده في تفسير لفظة الخلاف فقال «هو ما لا يستند إلى دليلٍ، والاختلاف من آثار الرحمة»[18]، وهذا الرأي لم يقمْ عليه دليلٌ، فقد أجمعت جميع معاجم اللُّغة العربيَّة على أنَّ الخلاف والاختلاف هو ما لم يتَّفق حوْله.

وفي المعاجم الفرنسيَّة خصوصًا، أفاد الفعل «اختلف» ومصدره «الاختلاف» المعاني ذاتها المتداولة في نظيرتها العربيَّة، فقد عرَّفه معجم الأكاديميَّة الفرنسيَّة «المُعدَّل» بأنَّه «التنوُّع واللامتشابه، ويقصد به التمييز، ويعني الصفة الأساسيَّة التي تميِّز بين شيئين من نفس الجنس»[19].

والتنوُّع والتعدُّد من المعاني المستفادة من الاختلاف، وهي نتائجٌ لكل لقاء بين طرفيْن متباينيْن ومتميِّزيْن، وهو ما يُنافي ويُناقض مفهوم الاختلاف في الفلسفة اليونانيَّة القديمة «قبل أنْ يصبح مفهوم الاختلاف موضوعًا مركزيًا في التفكير الأخلاقي والسياسي والأنثربولوجي، كان مُجرَّد فكرةٍ سلبيَّةٍ تعني

16- ابن تيمية، مجموع فتاوى، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، المجلد الثالث عشر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1425هـ/2004م، ص 19

17- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت 1094هـ/1683م) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعدّه للطبع، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419هـ /1998م، ص 61

18- الكفوي، الكليات، مرجع سابق، ص 61

19 *Dictionnaire de l'académie Française*, 5eme Edition, 1798, revu, corrigé et augmenté, par l'Académie Elle-Même, édition EBooks France, Paris.

- Alfredo Gomez - Muller, «*Différence*, *philosophie*», Encyclopædia Universalis. URL: http://www.universalis.fr/encyclopedie/difference-philosophie /

فَقْدُ الهوية وإزالتها»[20]، ولأنَّ الهوية مرتبطةٌ بالأنا فقد اعتبر كلٌّ من أفلاطون (427 ق.م-347 ق.م) وأرسطو (384ق.م-322ق.م)، أنَّ فكرة الاختلاف تؤسِّس لمحو الخصوصيَّة والهوية هي تركيبٌ لجملةٍ من الخصوصيات ومجموعها يشكِّل انتماءً متميزًا، تتجسَّد من خلاله الهوية الفرديَّة، ولعلَّ هذا ما دفع بالمعجم الموسوعي لاروس (Larousse) بالاحتفاظ ضمن معاني الاختلاف بهذا المعنى فقال انَّه «غيابُ الهوية والتشابه بين الأشياء والأشخاص».

والاختلاف كفعلٍ فطري في الوجود الإنساني، لا يتنافى وثقافة الحوار اللّقاء ولا يتناقض أيضًا مع الخصوصيات الثقافيَّة. فإمكانات التواصل ضمن المُختلف عمليَّة عقلانيَّة طبيعيَّة أثبتت التجارب البشريَّة إمكانية وقوعها وتحقُّقها.

بقي في نهاية هذا المبحث المتعلق بدلالة الفعل «اختلف» في المعاجم العربيَّة والغربيَّة، الإشارَة إلى أنَّ ترجمة مُصطلح «الاختلاف» (différence) إلى اللُّغة العربيَّة شهد اختلافًا وتباينًا كبيرًا بين المترجمين ومُصنفي الموسوعات الفلسفيَّة، فقد ترجم تارةً بمعنى «الفرق» «الفرق différence هو اختلاف الشيء عن الشيء، ببعض الصفات، وإن كانت صفاتها الأخرى متساويةً»[21].

في حين جعله مَجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة مرادفًا لمفهوم «فصل» فيقول: الفصل (différence) «إنها صفة ذاتيَّة تميِّز نوعًا ما من بقية الأنواع الأخرى الداخليَّة تحت جنس واحد»[22].

الاختلاف بين التأصيل والتصنيف

لم يخالفْ الدكتور علي أومليل الفِطرة الإنسانيَة حين عَنوَن كتابه بـ (في شرعيَّة الاختلاف) ذلك أنَّ ظاهرة التَّباين والتَّناقض والتَّضادِّ من أساسيات الحياة، ومعادلة طبيعيَّة، فالاختلاف استجابةٌ للمتغيرات الزمانيَّة والمكانيَّة، وشلُّ فكرة الاختلاف هو الإخلال بنظام الطَّبيعة وتركيبة الكوْن، فقد خلق الله الكوْن والناس بعقولٍ ومداركٍ واتجاهاتٍ متباينةٍ، وسخَّر لهم ألسنة متعدِّدةً للتواصل والتفاهم وهم في ألوانٍ متنوعةٍ وتصوُّراتٍ وأفكارٍ متباينةٍ ومتناقضةٍ أحيانًا، كلَّ هذا لتحقيق قدرة إلهيَّة تتمثَّل في أنَّ التطابق الكليَ عمليةٌ معاكسةٌ ومنافيةٌ للفطرة والطَّبيعة «إنَّ الاختلاف في وجهات النَّظر، وتقدير الأشياء والحُكم عليها أمرٌ فطريٌّ طبيعيٌّ وله علاقة بالفروق الفرديَّة إلى حدٍ كبيرٍ إذْ يستحيل بناءُ الحياة، وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس ذوي القدرات المتساوية والنمطيَّة المتطابقة، إذْ لا مجال -عندئذ- للتفاعل والاكتساب والعطاء!

20 http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/difference/25435.

21- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 145

22- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1403هـ/1983م، ص 136

ذلك أنَّه من طبيعة الأعمال الذهنيَّة والعمليَّة اقتضاء مهاراتٍ وقدراتٍ متفاوتةٍ ومتباينةٍ»[23]، فلكلِّ عصرٍ أسئلته وقضاياه وانشغالاته التي تؤدِّي إلى الاختلاف، وتختلف المقاربات والرؤى وفق إملاءات التحديات ورهانات كلَّ مرحلةٍ.

والمرحلة المعاصرة وبفضل تكنولوجيا المعلومات وثقافة الصورة والانتقال من ثقافة المقروء إلى المرئي، برزت الاختلافات بفضل الاحتكاك المباشر وغير المباشر بين الأنا والآخر، فظهرت الفوارق واختلَّت معادلة القوى بين الطرفين؛ أنا متخلفةٌ، وآخر متطورٌ، ينظر كلَّ طرفٍ إلى الآخرِ نظرةً منبثقةً من مرجعيَّةٍ مشبعة بالصوَّر النَّمطيَّة والأفكار المتخيَّلة الوهميَّة «وهذه النَّظرة (الآخريَّة) للآخر لا تُرى، ولا تُحبُّ أنْ ترى، أو لا يُمكنها أنْ ترى إلا من خلال ما ترسخ من صوَّرٍ معرفيَّةٍ وإدراكيَّةٍ وتاريخيَّةٍ، الَّذي تراه وفق نسقٍ مركزي عولمي اختزالي، ممَّا قلَّل من فُرص التسامح في الرؤية والتعدُّد في النَّظر، والانفتاح في التاريخ وفي مقابل الصورة الغربيَّة عن العالم العربي، نجد الصورة العربيَّة عن العالم الغربي، فكمْ نظَّر الواقع العربي للغرب على أنَّه المسؤول مباشرةً عن تقويض المجتمعات العربيَّة الإسلاميَّة وتعويق انتقالها التاريخي ... وكلا الصورتين مغلوطةٌ ومشوهةٌ»[24].

وإذا كان الاختلاف الداخلي أو المحلي يُمكن تجاوزه واستثماره واستقطابه ضمن مكونات الهوية الأساسيَّة المحليَّة وفي إطار مفهوم الانتماء الواسع الذي تنصهر فيه الاختلافات المحليَّة، فإنَّ الاختلاف الخارجي يُشكِّل إشكالية لأنَّه العلاقة التفاعليَّة بين الأنا والآخر/المُختلف، عقائديًا ولغويًا وثقافيًا «مَسألة الاختلاف تُهيمن على عصرنا؛ من اختلاف في الثقافة والطَّبيعة، إلى الاختلاف حوْل الرموز الوطنيَّة والدينيَّة، وهذا يؤدي إلى التردُّد في إقامة العلاقات وتقوقع كل واحد في إقليمه ومُحيطه وحوْل كل ما يشكِّل اختلافه؛ أي هويته»[25].

يعني الحديث عن الآخر اكتشاف الذات، وعلاقة هذه الذات مع الآخر سياسيًا واجتماعيًا وحضاريًا وثقافيًا، بمعنى مُمارسة فعل المثاقفة، وهذا الفعل يُحيل إلى طريقين؛ الأوَّل إيجابيٌ ويتمثَّل في التبادل الثقافي القائم على النِّديَّة، والثاني حركةُ هيمنةٍ وإقصاءٍ وتمركزٍ ورفضٍ لكلِّ غيريٍّ. وقبل الولوج إلى فضاء المثاقفة كما عَرَّفها علماء الأناسة من حيث إنَّها تفاعلٌ بين الثقافات وتأثيرٌ أو تأثُّرٌ متبادلٌ نتيجةَ الاتصال الحاصل بينها واحتكاك بعضها ببعض، نقول بأنَّ أهمَ ركيزةٍ للمثاقفة هو الاختلاف، فالبحث في إشكاليته وتجلياته هو بحثٌ أساسًا في كيفيَّة تشكُّل البُنيات والأنساق المعرفيَّة التي تحدِّد العلاقات الإنسانيَّة، ابتداءً من علاقة الأنا

23- طه جابر العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، و.م.ا، 1991، ص 11

24- عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2012م، ص 13

25 Jean-Marie Benoist, *Facettes de l'identité*, in L'Identité: *Séminaire Interdisciplinaire*, 1974-1975, Edition Gra - set, Paris,1977, p, 95

بالأنا، ثم علاقة الأنا بالآخر، والسعي إلى تفكيك الثقافة المؤسسة للنَّمطيات (les stéréotypes) والأفكار المسبقة (les préjugés) والصوَّر المتخيَّلة (les images imaginaires) التي تسيطِّر وتحدِّد علاقات التفاعل والتواصل «فالاختلاف من أجل الاختلاف، أو الاختلاف المُطلق، معناه تشتيت لا نهاية له للآراء والمعتقدات، كلٌّ منها منغلقٌ على ذاته، رافضٌ للآخر، كلٌّ منها يشكِّل عصبيةً لا تقبل بالتعايش. فهو إذن صراعُ العصبيات وما يجرُّه من فوضى على النظام الاجتماعي»[26].

إن الإيمان بالاختلاف يقتضي من «الأنا» تجاوز بعض مظاهر أنانيتها وشوفينيتها والعَكس صائبٌ، ذلك أنَّ البناء الحضاري الجديد يقتضي ويفترض مساهمة القطبين، لإنجاز توازنٍ عقلاني بين المُنتج والمُستهلك في ميادين الثقافة والاجتماع وغيرها، فالارتكاز الأحادي ينتج اختلالًا بين الهويات ويدفع بالبُنيات الثقافيَّة والأيديولوجيَّة إلى استغلال الاختلافات الدينيَّة والمعرفيَّة والثقافيَّة الموجودة في «الأنا» في شكل صوَّرٍ وتراكماتٍ موروثةٍ، لترسيخ نتائج تتَّسم بالعدائيَّة والروح الصداميَّة «المُجتمع البشري هو جملةٌ من العلاقات التي ينسجها الناس فيما بينهم، أو التي يقيمونها مع الطَّبيعة وبقية الكائنات، على سبيل التداول أو على سبيل الاندماج والتَّفاعل. وهذا هو معنى التواصل، إنَّه عبارةٌ عن تعايش الناس بعضهم مع بعض، أو وسط محيطهم الطبيعي. وما يجعل الاتصال ممكنًا، هو الوسائط والوسائل التي يبتكرها البشر، كما تتَّجسد في اللُّغات أو في التقنيات؛ أي ما في المنتوجات الرمزيَّة من العلامات والنُّصوص والمعايير أو في المنتوجات الماديَّة من السلع والأدوات والقنوات»[27].

إنَّ رسالة الوجود تفترض معرفة «الآخر»، والآخر هو الاختلاف، والاختلاف لا يُمكن إدراكه دون ذات مُهيأةٍ، مستعدةٍ لفهم الخصوصيات واستثمارها واستيعابها في مشروعٍ نهضوي يستلهم تجاربه الشخصيَّة والغيريَّة ثم يبلورها في أنساقٍ ومشاريعٍ ثقافيَّة ومعرفيَّة تتماشى مع روح العصر وفلسفته، كما تطلب من الآخر التَّخلص من مركزيته التي حالت وحجبت الرؤية الموضوعيَّة للآخر والغيْر، ونفي وإلغاء ما ترسَّب عنده من صوَّر نمطيَّة شُكِّلت وفق رؤى مغلوطةٍ، ومُتخيلةٍ ناجمةٍ عن أيديولوجياتٍ عنصريةٍ «الصورة المكانيَّة للعالم التي خلقتها الثقافة تبدو أنَّها تتأطَّر بين البشريَّة والواقع الخارجي للطَّبيعة، وتُعدُّ منجذبة باستمرار بين هذين القطبين. تلتفت نحو البشريَّة باسم العالم الخارجي الذي تُعدُّ صورة له، في حين أنَّ التجربة التاريخية للإنسان تُخضع هذه الصورة لإعادة بناءٍ مستمرةٍ، تُجهد نفسها لبلوغ تمثُّلٍ دقيقٍ للعالم»[28].

26- علي أومليل، في شرعية الاختلاف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1991، ص ص 10، 11

27- علي حرب، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص 183

28- يوري لوتمان، سيمياء الكون، ترجمة، عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2011، الدر البيضاء، بيروت، ص ص، 218- 219

ففكرَة المُثاقفة مطروحةٌ من جميع المنظومات الفكريَّة والثقافيَّة وحتى المركزيات الأكثر راديكاليَّة، فالأغلبيَّة تدعو إلى مُثاقفةٍ تتماشى وأطروحاتها وتستجيب لمرجعياتها التي غالبًا ما تتميَّز بالهيمنة والإقصاء أو بادعاء النَّقاء الإثني والعرقي، وعدم قدرة «الآخر» (غير الغربي/الأوروبي عمومًا والعربي المسلم خصوصًا) على الاستجابة للاندماج الحضاري والتكيُّف مع الغرب[29]، وتستجيب الهويات المهزومة لهذه الرؤى بالانزواء والتقوقع على نفسها خوفًا من الذوبان والضياع والاغتراب، وهي ردودُ أفعالٍ سلبيةٍ، حيث ترى «الأنا» نفسها مظلومةً معطلةً بسبب «الآخر» الكولونيالي الَّذي أجهض كلَّ مشاريع النهضة وترك آثارًا وجروحًا لا يُمكن أنْ تندمل بين عشيةٍ وضحاها.

فشلت المُثاقفة بين «الأنا» المؤمنة بفكر المؤامرة و«الآخر» المعتزُّ بقوته ومركزيَّته «وَصفُ ((الأوروبية)) يُقيِّد مفهوم ((الفلسفة)) فيجعلها محصورةً في المنطقة ((الأوروبية))، فإنَّ فلاسفة الغرب تعاملوا مع هذا المفهوم كما لو أنَّ دلالته كانت مُطلقةً، إذْ يزعموا أنَّ ((أوروبا)) هي وحدها التي أبدعت الفلسفة وأنَّ غير الأوروبيين لا حظَّ لهم في هذا الإبداع»[30].

تساءل أكاديميون حول إشكاليَّة المركزيَّة الغربيَّة في مُحاولةٍ لتشخيصها ومعرفة أسباب نشأتها ومُلابسات تشكُّلها وتمكُّنها من الفكر والوعي الغربيين، وتباينت أطروحاتهم وتأويلاتهم في رؤى متباينة، نُجملها في ثلاث مقاربات، تذهب الأولى إلى أنَّ المركزيَّة الغربيَّة تعود إلى عقدة «تضخم الذات» وشخصيَّة الأنا المُتَّضخمة تستمدُّ سلوكها وقيَّمها ومبادئها من عقدة النرجسيَّة، وهي حالةٌ نفسيةٌ وهميةٌ، تجعل المريض عاجزًا عن تقدير قدراته الحقيقيَّة، تقديرًا عقلانيًا موضوعيًا وتصاحبه رؤيةٌ دونيَّةٌ لكلِّ ما هو مُختلفٌ ومُغايرٌ، مع مغالاة في تفخيم الذات إلى درجة الوصول إلى الهذيان الفكري. وتعتقد الرؤية الثانيَّة أنها حالةٌ تاريخيَّةٌ عاديَّةٌ ناتجةٌ عن موروثٍ حضاري يوناني/روماني وعقيدةٍ دينيَّةٍ مسيحيةٍ/يهوديةٍ، بالإضافة إلى تاريخٍ إمبراطوري كولونيالي أدَّى إلى إنتاج ثقافةٍ متعاليةٍ ترى في نفسها صفات الكمال وفي غيرها العجز والنقصان، وتَجنح المقاربة الثالثة إلى أنَّ ما يعتقده الآخر من مركزيَّةٍ عنصريَّةٍ هو مجرد تصورٍ مغلوطٍ وقراءةٍ ساذجةٍ لمنجزٍ حضاريٍ عظيمٍ ومُبدعٍ استطاع أنْ يستفيد من كلِّ الحضارات، ومن كلِّ التيارات التنويريَّة الكونيَّة، من خلال توظيف المناهج النَّقديَّة والعلميَّة، وتسخير جهودٍ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ للوصول إلى تحقيق حضارةٍ إنسانيَّةٍ عالميَّةٍ.

29- ينظر في هذا المحور:

- برنارد لويس، أزمة الإسلام، ترجمة حازم مالك، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، 2013

- صامويل بي هانتنغتون، الإسلام والغرب آفاق المواجهة، ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995

30- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006، الدار البيضاء، ص 58

تروج المنظومات الفكريَّة والثقافيَّة المشتغلة بحقل المثاقفة إلى خطابات تدعو لتجاوز الاختلاف وتسعى وراء تحقيق توافقٍ إنساني، يتبنَّى التنوُّع والتعدُّد وينادي بالحوار ونبذ المركزيات وما ينتج عنها من عنصريَّةٍ وإقصاءٍ. ولكن هذا الخطاب لم يتعدَّ واقعيًا حدود جماليات التعبير والمجاز والأماني، فقد ازدادت الهُوَّة وتعمَّقت فجوة الاختلافات، على الرَّغم من تشخيص ومعرفة المُختلف حوله «ينقسم الاختلاف بين الأمم بحسب المجالات إلى ثلاثة أقسام كبرى هي ((الاختلاف في المفاهيم)) و((الاختلاف في الأحكام)) و((الاختلاف في القيم))»[31]، لكنَّ معرفة العلَّة لم تصاحبها آليَّة البحث عن العلاج الإجرائي والآداتي، لاستئصال عقبات الاختلاف وعدم التواصل وتزايد القطيعة، فأين الخلل؟

إنَّ إنتاج خطاب ثقافة الاختلاف، تميِّز عند القطبين العربي والغربي بالانشطار التعدُّدي في الرؤية، فانقسمت المنظومات الفكريَّة والفلسفيَّة إلى تياراتٍ متباينةٍ ومتناقضةٍ، تنتج كلٌّ منها خطاباتٍ (تراثيَّةٍ وحداثيَّةٍ وأصوليَّةٍ) تعتقد كلٌّ منها وبحسب موقعها بصواب مقاربتها، فترى المركزيَّة الغربيَّة بأنَّ «هناك تغايرًا مطلقًا يميِّز ثقافة المتحضرين عن ثقافة المتوحشين والبدائيين ويميِّز بالتالي الحضارة الغربيَّة عمومًا عن باقي حضارات المجتمعات البشريَّة الأخرى وثقافتها»[32].

وعلى الرَّغم من محاولات بعض علماء الأنثربولوجيا من أمثال كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) (1908 - 2009)[33]، خلخلة هذه الرؤى التي تبنَّتها الأنثربولوجيا الكلاسيكيَة وتفنيد أفكارها بتقديم رؤى ومقاربات جديدة، تؤسِّس لفكر التنوُّع والتعدُّد الحضاري والثقافي وهو ما عُرف بالأنثربولوجيا البُنيويَّة، إلا أنَّ المركزيَّة الغربيَّة ترفض الاختلاف في ظلِّ التنوُّع، على الرَّغم من أنَّه استجابةٌ طبيعيةٌ نحو المُغاير، والتعبير عن التباين والتنوُّع قد يأخذ أشكالًا تعبيريَّةً مختلفةً، تتراوح بين الاستحسان والاستهجان، التَّقارب والتَّعاون والتَّجاهل والتَّنافر وغيرها، فهي تعتقد بأنْ «تتحوَّل ظاهرة الاختلاف الثقافي إلى ذريعةٍ في يد حركاتٍ عنصريَّةٍ، هدفها نشر أفكار الامتياز والتفوُّق العرقي، والدفاع العلني عن أطروحة انعدام التكافؤ والمساواة بين الثقافات البشريَّة، عندئذ يكتسي المشكل طابعًا آخر، حيث يترتب عنه تداعياتٌ أخلاقيَّةٌ ومواقفٌ سياسيَّةٌ تتبلور بشكلٍ مكشوفٍ في السلوك المُحتقِر للثقافة المغايرة والمعادي لها»[34].

31- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص 135

32- عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب، عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، آذار/مارس، 2013، ص 29

33- يرى ليفي ستروس أنه ليس هناك حضارة بدائية وأخرى متطورة وإنما هناك حلول وقراءات وإجابات لقضايا ومشكلات أساسية مثماثلة، وإنَّ المجتمعات جميعها تمتاز بالتفكير سواء الموصوفة بالتحضر أو التوحش، والتنوع الناتج عن الاختلاف في الاستجابات لا علاقة له بالتنوع البيولوجي، لأن هذا الأخير يمثل معادلا موازيا للتنوع الثقافي الذي يعدّ أشمل وأوسع. ينظر كتاب:

كلود ليفي شتراوس، الفكر البري، ترجمة وتعليق، نظير جاهل، مجد للدراسات، بيروت، ط3، 2007، ص 21

34- عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، مرجع سابق، ص 30

وإذا كانت هذه رؤية «الآخر» المتقدِّم تكنولوجيًا وحضاريًا، فإنَّ «الأنا» الموسومة بالتَّخلف، قد شكَّلت لنفسها رؤيةً خاصةً نحو هذا الغرب (الآخر) ونمذجته ضمن صورة المتسلِّط الكولونيالي، الصليبي، رمز الاستلاب والاستغراب والهيمنة الثقافيَّة «هو (الغرب) وبقدرته الفائقة على تسمية الأشياء، إذ يسمينا، يحدِّد ماهيتنا (من نحن وما نحن) وبالتالي يقرِّر موقفه منَّا، وأسلوب معاملته لنا: نحن ((إرهابيون)) مثلًا، إذا لم نتنازل عن مطالبنا وتجاسرنا على القتال من أجلها، ونحن ((مُعتدلون)) إذا رضينا بالمساومة وقبلنا بالأمر الواقع، وفي كلِّ الأحوال، هدفه بالنسبة إلى الآخر هو أنْ يخصيه بالمعنى الفرويدي للكلمة، كشرطٍ للهيمنة عليه كليًا»[35].

تتحمَّل المرجعيات التكوينيَّة للمنظومتين وكذا المرويات الكبرى والنماذج الانتقائيَّة من التاريخ، مسؤوليَّة التنميط الراسخ في الثقافة الفرديَّة والجماعيَّة، يُضاف إلى ذلك عجز النُخب الثقافيَّة والسياسيَّة في إيجاد بدائل لصراع الحضارات أو حوارها، فقد انقسمت هذه النُخب إلى تياراتٍ واتجاهاتٍ فكريَّةٍ وأيديولوجيَّةٍ مختلفةٍ، تختلف حول جوهرِ القضايا التي تؤسِّس لفكر الاختلاف، كقضايا الدين والدولة واللُّغة والعلمانيَّة والحقوق وغيرها من الانشغالات التي تكوِّن فكر المُختلف فيه، فأصبح السؤال اليوم ليس كيف نتحاور ونتفق، بقدر ما هو سؤال حول المُحاور؟ وإلى أية منظومةٍ فكريَّةٍ وقيميَّة ينتمي؟

وسؤال شرعيَّة المُحاور تتجاوز المنظومة الفكريَّة العربيَّة المُتشظيَّة والمنقسمة والمهزومة حضاريًا إلى المركزيَّة الغربيَّة ذاتها، فانتقال النُخب الغربيَّة من المركزيَّة الغربيَّة الأوروبيَّة إلى المركزيَّة الأمريكيَّة، أحَدث إرباكًا معرفيًا كبيرًا حول العديد من القضايا الجوهريَّة كالعلمانيَّة والموقف من الكنيسة وقضايا المجتمع كالإجهاض أو القضايا السياسيَّة والجيواستراتيجيَّة المتعلقة بالانتشار والنُفوذ «إنَّ مفهوم ((الآخر)) يَنطوي في الغالب على فهم جوهراني للذات، أي أنَّ الذات وهي تحدِّد ((آخرها)) ترى نفسها هي الأساس الذي تصدر عنه المعايير التي يمكن من خلالها تحديد من هو ((الآخر)) وكذلك موقع ذلك الآخر في سلَّم القيَّم، ومن هنا فإنَّ تحديد ((الآخر)) يتضمن موقفًا أخلاقيًا ينضم إلى الموقف المعرفي، ومن خلال الموقف الأخلاقي تحدَّد مكانة الآخر، هل هو جيدٌ أو رديءٌ، خيِّرٌ أم شريٌ، مقبولٌ أو غير مقبولٌ وهكذا»[36].

تكمن أهميةُ الاختلاف في جملة المفارقات التي تحدث من صراع الأنا والآخر، ذلك أنَّ سُنَّة التدافع تبيح وتجيز البقاء للأنفع وفق منظومةٍ أخلاقيَّةٍ إنسانيَّةٍ، تَجعلُ رسالتها تتجاوَز فضاءها المحلي وتتَّجه نحو الفضاء الكوني الرحب، فالليونة والتسامح من مبادئ التفوُّق الحضاري الَّذي يستطيع الاستثمار في الاختلاف ويَجعل منه أرضيَّةً للبناء الحضاري الإنساني «غير أنَّه آن الأوان لإعادة النَّظر في مفهوم الغرْب، فكمْ التبس هذا المفهوم في الوعي - واللاوعي- العربي؟ ذلك أنَّ المُخيِّلة الإسلاميَّة تختزن، هي بدورها، صُوَرًا

35- هشام شرابي، الثقافة العربية في المهجر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988، ص 26

36- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، مرجع سابق، ص 36

متناقضةً عن الغرب، لذلك يتعيَّن الكشف عن مدلولات هذه الصوَّر وتفكيك مُسبقاتها ونقد ((الغرب المُتخيَّل)) الذي مازال يَجد كثيرًا من ردود الأفعال والمواقف العربية»[37]، وستصطدم حتمًا هذه الرؤى الاستشرافية بعقبات المركزيات والمرجعيات والعصبيات، لأنَّها تدافع عن بقائها وتموقعها في فضاءاتٍ أيديولوجية براغماتيةٍ، تتغيَّر وتتبدَّل، بتغيُّر المواقف والمنافع والمراجعات، فالعالم يشهد مراجعات كبيرة في النظم والقيم والمفاهيم، فالعولمة بمختلف صيَّغها تسعى لتصويب المفاهيم وتفتح بفضل فتوحات عالم الاتصالات رهانات وتحديات جديدة تتعلق بتفكيك العديد من الأفكار، كما تشجع على النقد الذاتي داخل المركزيات نفسه «إنَّها أزمة الحضارة التقليديَّة والحضارة الغربيَّة أيضًا، فالحضارات التقليدية مُهاجَمةٌ ومُهَددةٌ من طرف: التقدُّم والعولمة والغرب، فهذه الأوجه الثلاثة حقيقة؛ التقدُّم يدَّمر تضامنهم وبُناهم السياسيَّة ويُنتج طبقة وسطى جديدةً مستغربةً، وفي الآن نفسه يؤدي إلى بؤسٍ كبيرٍ، إنَّ التطوُّر على الطريقة الغربيَّة نموذج لا يحترم الخصوصيات الثقافيَّة»[38].

وعلى الرَّغم من ثورة بعض النُخب شرقًا وغربًا على تطرّف المركزيَّة الغربيَّة وتمسكِّها بجماليات وقوَّة منجزها الحضاري وإقصائها لكل المساهمات الإنسانيَّة، فإنَّ روح التشاؤم تسيطِّر على منظري ومؤسسي فكر الاختلاف ودعاة ثقافته، فالمبادرات الفرديَّة آلت جميعها إلى الفشل وبقيت رهينة صفحات الكتب والموسوعات، فدعوات الانفتاح والتسامح كثيرةٌ ولكن الاستجابات الفعليَّة والفعالة، مازالت لم تتجسَّد واقعيًا «سيبقى هذا التوتر قائمًا بالرَّغم من صيغ ((التعايش))، لأنَّ المسألة رهينةٌ بطَّبيعة علاقات القوى وبالشروط العامة لتأكيد الذات، وفي غياب هذه الشروط سنبقى نتبّع السياسة التي يختارها الغرب لنا، ونسلك سُبُلاً ((نضاليَّة)) يُمليها ((هو)) عنَّا، ونتحاور أو نتفاوض معه حينما نرضخ للقواعد التي يفرضها هو»[39].

إنَّ التناقض الكبير الذي تأسَّست عليه المنظومتان العربيَّة والغربيَّة حول فكرة الاختلاف يستوجب إعادة قراءة وتركيب تشمل البُنى والمُعتقدات والركائز المعرفيَّة والأيديولوجيَّة، للوصول إلى صياغة مفاهيميَّة جديدة لثقافة الاختلاف والإيمان كما يقول محيي الدين بن عربي بأنَّ «الخلاف حقٌ حيث كان»[40]. فالبحث في مشروعيَّة الاختلاف وضرورته كقيمةٍ حضاريَّةٍ فطريَّةٍ وحتميَّةٍ لكل تعاونٍ إنساني، يتَّطلب أولًا الإيمان بالحوار كآليَّةٍ للاستمراريَّةٍ في عمليَّة المثاقفة «الأصل في الحوار، الاختلاف، إنَّنا لا نَدخل في الحوار إلا ونحن مختلفان، بل إنَّنا لا نتحاور إلا ونحن ضدان، لان الضدين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون

37- محمد نورالدين أفاية، المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، مرجع سابق، ص 119

38 Edgar Morin (Entretien) *l'Un des Tragédies de l'Europe, c'est que les nations sont égocentriques*, propos r - cueillis par: Robert Jules et Philippe Mabille, la Tribune,02/05/2015.disponible sur: http://www.latribune.fr.

39- محمد نورالدين أفاية، المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، مرجع سابق، ص 118

40- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية تحقيق عثمان يحي، الباب الثامن والخمسون وخمسمائة (في معرفة الأسماء الحسنى، القادر والقدير، حضرة الاقتدار) الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1405ه/1985م، ص 296

إلا بين مختلفين متقابلين، أحدهما يطلق عليه اسم ((المُدعي)) وهو الَّذي يقول برأيٍ مخصوصٍ ويعتقده؛ والثاني يطلق عليه اسم ((المُعترض)) وهو الذي لا يقول بهذا الرأي ولا يعتقده»[41].

لم تفصلْ المُقاربات بمختلف أطيافها واتجاهاتها في مفهوم الاختلاف، من حيث إنَّه مُجرد تباينٍ حوْل مسألةٍ معينةٍ قد يأخذ أشكالًا وتلويناتٍ مختلفةً، تتنوَّع وفق المُختلفيْن أو المُختلِفين، ومن مظاهره المُجادلة والتنازع والافتراق واللامساواة، كما قد يؤول إلى الاتفاق حول مشتركٍ أو مصلحةٍ وغايةٍ، وإذا كانت القطيعة المُطلقة ممكنةً في بعض المسائل والقضايا فإنَّها تكاد تكون مُستحيلةً في الميدان الحضاري والثقافي، لأنَّ المادة المكوِّنة والمؤسِّسة للميدانين هو الإنسان، والإنسان خُلق ليتواصل ويحتكَّ، ويؤثر ويتأثر ويتحاور كما يتصادم وهكذا «فالاختلاف أساسي لوجود الثقافة لكنَّه يزيد وينقص تبعًا لعوامل كثيرةٍ منها التاريخي والجغرافي والثقافي البحت. ومحصلةُ هذا هي أنَّ الاختلاف والتجانس مُتغيران تبعًا لظروف كثيرة»[42]. فالاختلاف في الفكر والتنوُّع في الثقافات من أبرز عوامل التطوُّر والثراء في المجتمعات البشريَّة، وبقدر ما يكون المجتمع متسامحًا، مستعدًا لتقبُّل الآخر/المُختلف بقدر ما يستطيع بناء مسيرة تطوره وأداء رسالته «فمهما كان موقفنا الفكري والفلسفي من الغرب سلبيًا، يبقى هذا الغرب بحضارته ومنجزاته واقعًا متحققًا لا يمكن القفز عنه، لكننا لكي نستطيع رؤية هذا الغرب، يجب أنْ يكون لنا عيون نرى بها، ولكي نسمع الغرب يجب أن يكون لنا عقول ندرك بها، أي أنَّنا لكي نرى الغرب وندركه ونستفيد منه أو ننتقده، علينا أن ننضج كذات أولاً، وأن نخرج من دائرة الصراع على الهوية نحو إدراك موضوعي للذات والهوية في ضوء حقائق الواقع وحقائق التاريخ»[43].

إنَّ إمكانية التعايش بين الثقافات ممكنةٌ إلى حدٍ بعيدٍ، ففضاء التنوُّع والاختلاف يتَّسع لاستقطاب جميع الخصوصيات، وليس الأمر بمقاربة طوباويَّة أو أُمنيَّة من أُمنيات العاطفة والوجدان، فمن شروط الفاعليَّة الحضاريَّة المشتركة أن يتجاوز الأنا والآخر، الخصوصيات والإيمان أنَّ لكلِّ حضارةٍ خصوصياتٍ، مع وجوب استبعاد الصوَّر الانتقائية من التاريخ والتراث للاستدلال على العداوة والانفصال، فكثيرًا ما يتمُّ توظيف صوَّر ومشاهد ومقولات من التاريخ، تمَّ اختيارها بمنهجٍ متعمَّدٍ لتحقيق غايةٍ مسبقةٍ، ويتمُّ في نفس الآن تناسي مشاهد تدفع نحو التعايش والمثاقفة «فإذا كان اختلاف الثقافات من الأمور البَدهيَّة ...فإنَّ وجود تشابهٍ بين الثقافات هو أيضًا من الأمور البَدهيَّة، بحكم الانتماء إلى العائلة البشريَّة التي تجعل بعض المعتقدات والعادات وغيرها من الإرث الإنساني الذي يبرِّر وصف شعبٍ أو مجتمعٍ، بأنَّه شعبٌ أو مجتمعٌ

41- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، مرجع سابق، ص 28

42- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، مرجع سابق، ص 14

43- محمد عادل شريح، ثقافة في الأسر، نحو تفكيك المقولات النهضوية العربية، دار الفكر، ط1 1429هـ - 2008م، دمشق، ص ص 344-343

إنسانيٌ، أو وصف فردٍ بأنَّه ينتمي إلى ذلك الشعب أو المجتمع...إنَّ دراسة ثقافة من الثقافات ينبغي أن تنطلق من الوعي بالاختلاف أو التشابه وليس العكس»[44].

الاختلاف ليس مبدأ ولا فلسفةً ولا ثقافةً ولا منهجًا، فهو يتجاوز هذه التصنيفات، ليقرِّر شرعيَّةً فطريَّةً أوجدها الله في مخلوقاته للتعارف ضمن القواسم الإنسانيَّة المشتركة، فكلّ تنميطٍ أو هيكلةٍ تُفقده قيمته وتَحرِم الإنسانيَّة من الاستفادة ممَّا يُتيحه التنوُّع في الطاقات والقدرات والأفكار والآراء والتوجهات والاختيارات في بناء الحضارة المشتركة، والتخفيف من حدَّة الصراعات والخلافات التي تضعف الذات الإنسانيَّة برمَّتها، وقد صدق ابن عربي حين وضع نظريَّة في العلاقات الإنسانية ترقى إلى درجة المثاليَّة، بتبنِّيها الحُبَّ كمعيارٍ لتجاوز الاختلاف:

لقدْ كنتُ قبلَ اليومِ أُنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينِهِ داني
وقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ ... فمرعى لغزلان وديرٍ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ ... وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنىَّ توجَّهتْ ... ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني[45].

44- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، مرجع سابق، ص 15

45- الشيخ الإمام محيي الدين بن علي بن العربي، ترجمان الأشواق، اعتنى به، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت، ط1، 1425هـ/2005م، ص ص 62 -63.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية

- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت 1094هـ/1683م) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعدّه للطبع، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419هـ/1998م.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ت).
- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (تـ 502هـ) المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط، محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لآيات القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ط1، 1423 هـ/2002م.
- الشيخ الإمام محيي الدين بن علي بن العربي، ترجمان الأشواق، اعتنى به، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت، ط1، 1425هـ/2005م.
- ابن تيمية، مجموع فتاوى، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، المجلد الثالث عشر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1425هـ/2004م..
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، 1982.
- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2008.
- صامويل هنتنجتون، صراع الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صالح قنصوه، سطور، ط2، 1999.
- صالح بن غانم السدلان، الائتلاف والاختلاف، أسسه وضوابطه، دار بلنسية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1417هـ.
- طه جابر العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، و.م.ا، 1991.
- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.
- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006، الدار البيضاء.
- عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب، عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، آذار/مارس، 2013.
- علي أومليل، في شرعية الاختلاف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1991.
- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (816هـ/1413م) معجم التعريفات، تحقيق ودراسة، محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة.
- علي حرب، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2004.
- عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2012م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1403هـ /1983م.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط4، 2004م.
- محمد عادل شريح، ثقافة في الأسر، نحو تفكيك المقولات النهضوية العربية، دار الفكر، ط1، 1429ه/2008م، دمشق.
- محمد نورالدين أفاية، المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، بيروت، 1414ه/1993م، ط1.
- محيي الدين ين عربي، الفتوحات المكية تحقيق عثمان يحيى، الباب الثامن والخمسون وخمسمائة (في معرفة الأسماء الحسنى، القادر والقدير، حضرة الاقتدار) الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1405ه/1985م.
- هشام شرابي، الثقافة العربية في المهجر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988.
- يوري لوتمان، سيمياء الكون، ترجمة، عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2011، الدر البيضاء، بيروت.

المراجع باللغة الفرنسية

- Alfredo Gomez - Muller, «*Différence*, philosophie», EncyclopædiaUniversalis. URL: http://www.universalis.fr/encyclopedie/difference-philosophie /.
- *Dictionnaire de l'académie Française*, 5eme Edition, 1798, revu, corrigé et augmenté, par l'Académie Elle-Même, édition EBooks France, Paris.
- Edgar Morin (Entretien) l'Un des Tragédies de l'Europe, c'est queles nations sont égocentriques, propos recueillis par: Robert Jules
- Gandhi (1869-1948)
- http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/difference/25435/.
- Jean-Marie Benoist, Facettes de l'identité, in L'Identité: Séminaire Interdisciplinaire, 1974-1975, Edition Grasset, Paris, 1977.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018